الفصل الثاني

عـــارف العـــارف مؤرخًـــا

عصام الشنطي

توطئـــة

في يوم صائف جميل، من أيام جبال القدس العليلة، أوائل شهر حزيران/ يونية من عام ١٩٥٤، وكنتُ قد تخرّجتُ في الجامعة منذُ عام، وأعمل في مدينة القدس، حضرتُ حفل تخرّج طلاب في دار المعلمين الريفية، الواقعة على الطريق بين مدينتي القدس ورام الله، وعلى مدخل الطريق المتفرّعةِ والمؤدِّية إلى قرية بيت حنينا التي تبعد عن الدار، في الداخل، بضعة كيلومترات. وكان قد بنى الدار عبد الحميد شومان، مؤسس «البنك العربي» ورئيسهُ، وفاءً لقريتهِ. وأهداها لوزارة التربية والتعليم الأردنية، لتعمِّرها بالدراسة والتعليم الزراعي.

وإذا بخطيب الحفل عارف العارف الذي كان، آنذاك، رئيسًا لبلدية القدس، وكنتُ قد قرأتُ له بعض كتبه، ولكنني لم أنعم برؤيته، أو لقائه قبلِ هذا الحفل. كان بادي الحيوية، لم يجاوز عمره الستين إلاّ قليلًا، مشرق الطّلعة، جذّاب الحديث، ينمّ عن أديب متمكن، وباحث رصين، واسع المعرفة، يشدُّ المستمعين إليه.

وزاد من انجذاب الحضور إليه طريقة تناوله الموضوع الذي رغب في طرحه، وأُسلوبه الذي أمتع الأسماع به. فَفَجَأنَا بحديثه عن تقدّم هذه البقعة المعقود فيها الحفل. وراح يفصّل في ذلك تفصيلًا، جعلنا نندهش من هذه الصورة الأشبه بالخيال. فهي تتضمَّن مزارع نموذجية، وحدائق غنّاء، وشوارع نظيفة، ومساكن للفلاّحين وثيرة، يعيشون فيها حياة ناعمة، ويتمتّعون برعاية صحية راقية، ويتعلم أبناؤهم جميعًا تعلّمًا متقدّمًا. واستخدم المتحدِّث بيانه الرائع، مستمدًّا ذلك من بلاغته وثقافته الواسعة، وتجاربه الثّرية، حتى وصل في الحديث إلى أنه كان نائمًا ويحلم، ثم أفاق فوجد نفسَه بين يدي دار المعلمين الريفية، فتنبّأ أن المظر الذي رآه حلمًا، يمكن أن يتحقق بجهد هذه الدار، وجدّية برامجها، وسهر المسؤولين عنها.

منذ ذلك الحين عرفت هذا الرجل المقدسيّ على حقيقته، صورةً وجوهرًا. فهو أعظم من كتبه، مهما عظمت، واسع الآمال، مؤمن بالمستقبل. في الوقت الذي كانت فيه جروح النكبة عميقة في القلوب والجوانح. و كنّا نحيا فيها، لم يمضِ من الزمن عليها غير بضع سنين.

حياته وثقافته

وُلد عارف محمد العارف في مدينة القدس عام ١٨٩٢. وتلقّى تعليمه الابتدائي فيها. وشدَّ الرِّحال وهو فتى يافع إلى إستانبول، حيث أكمل دراسته الثانوية والجامعية عام ١٩١٣، أو نحوها، وتخصّص في الإدارة، والسياسة والاقتصاد.

وعمل بعد تخرّجه مترجمًا في وزارة الشؤون الخارجية العثمانية. وفي الحرب العالمية الأولى، ١٩١٤، جُنِّد ضابطًا في الجيش العثماني. وفي المعارك مع الروس أُسر عام ١٩١٥، ونُقلَ إلى سيبيريا التي قضى فيها معتقلًا نحو ثلاثة أعوام، عانى فيها كثيرًا من بردها الشديد، وحياتها القاسية، مع غربة وبُعد عن وطنه.

ولمّا نشبت الثورة الاشتراكية الروسية عام ١٩١٧، فرّ ورفاق له من العرب، في رحلة طويلة خطيرة. ولمّا وصل وصحبه فلسطين، وكانت الحرب قد وضعت أوزارها، وانسحب الأتراك من بلادنا، وبدأ في فلسطين حكم الانتداب البريطاني، عمل معلّمًا في المدرسة الرشيدية الحكومية.

ثم عُيِّن في عام ١٩٢٠، وما بعدها، قائمقام في مدينة جنين، ونابلس، ثم بيسان، ويافا، وبئر السبع، وغزَّة، ورام الله إلى أن انتهى الانتداب في عام ١٩٤٨.

وفي حكومة الأردن عُيِّن رئيسًا لبلدية القدس، ثم وزيرًا للأشغال العامة عام ١٩٥٥. وفي عام ١٩٦٧ عُيِّن مديرًا لمتحف الآثار الفلسطيني بالقدس.

أما وفاته فكانت سنة ١٩٧٣، بعد أن وفى من عمره ثمانين حولًا.

هذا هو الهيكل العام لحياة عارف، من تعليم وأعمال قام بها، ووظائف تسنَّمها. وبين حنايا هذا الهيكل نلحظ الشرايين تنبض بالحياة، وتكشف عن ثقافته ونشاطاته الأخرى، فضلًا على اهتماماته وتوجّهاته.

لقد شارك عارف العارف في الحركة الثقافية والفكرية في فلسطين، وكان من أعلامها المرموقين في القرن العشرين الميلادي.

وعُرف عضوًا بارزًا في الحركة القومية العربية، التي تنشد الاستقلال والوحدة، مع عدالة اجتماعية تهيب أفراد المجتمع بطبقاته كافة.

وسلك للوصول إلى هذا السبيل كل مسلك. وهو صاحب قلم وأديب، فالتحق، وهو في عنفوان الشباب، في إستانبول بالمنتدى الأدبي، وانتُخِبَ عضوًا في إدارته. وكان هذا المنتدى قد أنشأه العرب في العاصمة العثمانية، يهدفون من خلال نشاطه إلى استقلالهم ووحدتهم.

ولو أردنا أن نتعرّف إلى كنه شخصيته لأرشدنا إليه مفتاح هذه الشخصية المتمثِّل في التصميم والتحدّي، المُفضي

إلى الآمال العريضة، نحو مستقبلٍ أفضل. ونعدُّ من مظاهر هذا المفتاح سفره إلى إستانبول وهو فتى غضّ، يحمل شهادة الابتدائية، مصرٌّ على تخطّي عقبة المال لإكمال دراسته، بالعمل ليلًا في صحيفة تركية.

وكذلك عزمه على تعلّم غير لغة، فأتقن التركية (العثمانية) والفرنسية، بجانب اللغة العربية. وتعلّم في منفاه بسيبيريا الألمانية، وبعض الروسية. ومن فرْط نشاطه أصدر في المنفى صحيفة كان يكتبها بخطّه، أسماها «ناقة الله»، طابعها ثقافي فكاهي، ومعنية بنقد أوضاع المنفى.

وما فراره من المنفى مع رفاقه إلاّ من باب الإصرار والتحدّي، دون أن يتسرب اليأس إلى نفسه. ولمّا وصل إلى فلسطين شغلته القضية بدءًا من صدور «وعد بلفور» لإنشاء وطن قومي يهودي في بلاده. فأنشأ وصديقٌ له مقدسيّ صحيفة «سوريا الجنوبية»، عام ١٩١٩، شنَّ فيها حربًا على الصهيونية والانتداب البريطاني. وفي تسمية صحيفته إشارة إلى صلة فلسطين بسوريا خاصّة، ومن ثَمَّ بالعرب عامَّة. وبعد عام من صدورها، وعقب انتفاضة قومية عربية في فلسطين، أغلقت السلطات البريطانية الصحيفة، واعتقلته مع زعماء مقدسيين آخرين. وحين اقتادوه للمحاكمة العسكرية، هرب عارف العارف على قدميه، قاطعًا مسافة طويلة بين الجبال والفيافي، إلى أن وصل إلى شرقي الأُردن، واختفى بين قبائلها. وطفق البريطانيون يتعقّبونه دون جدوى، وكان قد حكموا عليه بالسجن عشر سنوات.

ولمّا ظهر، بعد ذلك، في دمشق، في عهد فيصل بن الحسين، شارك في المؤتمر السوري، وتقرّر فيه تأسيس «الجمعية العربية الفلسطينية»، واختير صاحبُنا أمينها العام.

وهكذا نرى أن حياة عارف العارف حياة زاخرة بالنشاط السياسي والفكري والثقافي. وكان في حركة دائبة، يحدوه الأمل في مستقبل أفضل لبلاده.

منهجه في مؤلّفاته التاريخية

إذا تعقبنا ما ألّف عارف العارف من كتب، وما صنّف من مؤلّفات، نجد أن جلّها، إن لم يكن كلّها، تحدوها روح مؤرِّخٍ، باحثٍ منقّب، واسع المعرفة، يعالج مسائله بموضوعيةٍ، وإنصاف، بعيدًا عن هوى النفس وأطماعها.

وبلغ من ولعه بالتأليف التاريخي أن قَرَنَ عناوين كتبه بكلمة تاريخ، من مثل: تاريخ بئر السبع وقبائلها[١]، وتاريخ غَزّة[٢]، والموجز في تاريخ عسقلان[٣]، وتاريخ الحرم القُدْسي[٤]، وتاريخ القدس - الموجز[٥]، وتاريخ قبة الصخرة المشرَّفة والمسجد الأقصى المبارك[٦].

وكان يغلب على هذه الكتب ما يتطلّبه منهج التاريخ من تحليل، يكشف فيه عن طبيعة الأحداث التي يأتي على ذكرها، وظروفها، وأسبابها ودوافعها، إلى أن يخلص إلى استنباط نتائج هذا العَرْض والتحليل.

ويدهشنا من كتبه في التاريخ كتاب: تاريخ بئر السبع وقبائلها، الذي ذكرناه عمّا قليل، وألّفه عقب كتابه ذي العلاقة الوثيقة بقبائل بئر السبع، وهو كتاب «القضاء بين البدو»[٧].

ومنذ أن شرع في مقدمة الكتاب يستبين القارئ أن عارف العارف كان باحثًا مجلّيًا في بحوثه التاريخية. ففيه أخذ يذكر تاريخ كل قبيلة، وأصلها، وما رواه الثقات من أبنائها.

غير أنه لاحظ ـ في بعض الحالات ـ تناقضًا، أخضعه بحاسته التاريخية إلى إمعان النظر فيه بمِجهَر دقيق.

تساءل في كتابه، وناقش فيه مَنْ هم أعراب بئر السبع، ومن أين أتَوْا، وإلى أية قبيلة من قبائل الجزيرة العربية ينتمون، ومن أيّ بطن من بطون العرب الأوائل يتفرّعون؟ وهل هم حقًّا عرب أقحاح من الجزيرة، نزحوا منها إلى هذه الديار؛ وإذا كان هذا هو الواقع، فمتى حدث ذلك؟ ألم يختلطوا بأقوام حلّوا بالمنطقة كالكنعانيين والمصريين والعمالقة والفلسطينيين، وغيرهم؟

ويحاول أن يحسم الأمر بعد هذه التساؤلات التي تكشف عن روح تاريخية متميِّزة. ويقرّر أنه رجع إلى الكتب والأسفار، والأطلال والآثار، والأحاديث والأخبار. ونبّه أن المؤرِّخ الأصيل لا يأخذ كل ما وجده في مصادره على علاّته. وبصراحة يتحفظ على مسائل في مبحثه هذا يكتنفها الغموض، وتحتاج إلى تمحيص وتنقيح، ومجهَر أدقّ وأوفى.

ويزداد اندهاش القارئ حين يعود لمصادره التي رجع إليها، فهي مصادر فيها استقصاء، وفيها طول نَفَس، وصبر على استخلاص ما يفيده منها. وأعانه على تنوع مصادره اتقانه لغير لغة أجنبية كالإنكليزية، والفرنسية، والألمانية.

وختم كتابه بما في العادة يختم كتبه في التاريخ، وهو «بئر السبع في يومنا هذا»، يقصد سنة ١٩٣٣، وقد كان قائمقامها. وهو فصل رصد فيه واقع المنطقة، وسجّل أوضاعها ونشاطاتها المختلفة.

ومما يلفت النظر، أنه كان في بئر السبع ومنطقتها سبع عائلات يهودية، لا يتجاوز أفرادها العشرين، غادروها عقب الهبّة الوطنية التي وقعت عام ١٩٢٩، وقد باعوا كل ما يملكون من مال ومتاع، ولم يعودوا إليها.

وفي كتاب له آخر، «تاريخ الحرم القدسي»، نلحظ ما يكشف عن بعض عناصر منهجه في مؤلَّفه هذا، يقول: «درست الموضوع دراسة مستفيضة. وهأنذا أضع ... كتابي ... مشتملًا على تاريخ الصخرة المشرَّفة، والمسجد الأقصى المبارك، وما بينها، وحولها من مبانٍ وآثار، مؤيِّدًا قولي، على قدر استطاعتي، بالصحيح من الأخبار، والثابت من الأسفار، وبالكتابات المنقوشة على الأبواب، والقباب، والمنابر، والجدران. ولقد توخيتُ، بقدر الإمكان، أن يجيء الكتاب في أسلوب تفهمه العامّة، وترضى عنه الخاصّة، وأن تتعاقب فيه الحوادث تعاقب السنين والأيام».

ويُقرُّ في هذه المقدمة أنه اعتمد على مصادر من التراث، مع بعض الحقائق التي قُدِّرَ له أن يطلع عليها بنفسه، وبعض الآراء التي دوَّنها من أجل إيضاح مسألة غامضة.

ويزيد عارف العارف منهجه في دراساته التاريخية وضوحًا، ويكشف عن الأهداف التي يتوخّاها في دراساته هذه، في كتابه «النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود»[٨]، الذي يعرض فيه منهجه بشفافية بالغة، وبأمانة ونزاهة. على أننا نلاحظ في العنوان أنه جعل الوطن بأكمله في كفة، وبيت المقدس في كفة مقابلة؛ لإحساسه أن العمود الأساس الذي يقيم بلادنا فلسطين هو مدينة القدس.

يقول في أول الكتاب[٩]: إنَّ هدفي من جميع بحوثي التاريخية هو الوصول إلى بيان الحقائق. وينبغي على المؤرِّخ أن يكون موضوعيًّا ومنصفًا، بعيدًا عن المصالح الذاتية والحزبية والقومية والدينية.

لقد وضع صاحبنا قواعد مفصَّلة عند تقييد الاحداث التاريخية، **أولها**: ألَّا تُرصَد حين وقوعها. وخير رصد للأحداث هو ما يُكتب بعد نحو ربع قرْن من الزمان، حتى تنجلي هذه الأحداث، وتتكشف حقيقتها، وتكون روايتها أقرب للصحة. وهي إشارة منه ذكية إلى ضرورة تجاوز ظاهر الأحداث كما يذكرها الإخباريون والإعلاميون.

وثانيها: أن يهتم المؤرِّخ بذكر أسباب هذه الأحداث ومراميها، وهي إضاءة للقارئ لمعرفة مجريات الأمور.

وثالثها: لا بد من ذكر مصدر هذا الحدث، هل هو شاهد عيان ثقة؟ وإن كان، فيفضَّل ـ إذا تيسَّر الأمر ـ أن يكونوا شهود عيان متعددين. أو هل هو وثيقة تدعم هذا الحدث وتؤيّده، أو مصدر من المصادر أو المراجع التي ينبغي على المؤرِّخ العودة إليها في كل حين.

ورابعها: أن يذكر المؤرِّخ هذه الأحداث بتاريخ وقوعها، مرتّبة ترتيبًا متعاقبًا، مرتبطة بالأحداث التي سبقتها، والأحداث اللاحقة لها.

وواضح أنَّ مثل هذا التمحيص والتدقيق في الكشف عن منهجه في الكتابة التاريخية يُرجِّح تأثره بعبد الرحمن بن خلدون(*) (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦م) الذي وضع منهجًا للتاريخ، وأشاد به المؤرِّخ آرنولد توينْبي Arnold Toynbee (ت ١٩٧٥)؛ لأنه ـ بقوله ـ صاغ فلسفة للتاريخ.

لقد وضع ابن خلدون للمؤرِّخ شروطًا، منها أنه محتاج إلى معارف متنوعة، وحُسْن نظر وتثبّت، يُفضيان بصاحبها إلى الحق، ويُبعدانه عن الفهم الخطأ.

إن شمولية ابن خلدون مكَّنته من الفحص، والتحليل، واستعمال منهج «قياس النظير». ورأى أن المؤرخين، كالمسعودي مثلًا، كانوا يقعون في الخطأ والوهم؛ لأنهم اعتمدوا على نقل المبادئ، غثَّها وسمينها.

إن المبادئ التي وضعها ابن خلدون صدرت عن روح مؤرِّخ موضوعي منصف، ظهرت في كتابه المعروف «كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر ...»، سواء في مقدمته المشهورة، أو في سائر أحداث التاريخ التي تعرَّض لها في كتابه.

ونذكر ما ضربه ابن خلدون من أمثلة، كحكاية العبّاسة أخت هارون الرشيد (ت ١٩٣ هـ/ ٨٠٩ م)، التي رأى أن توضع تحت المجهر، وأن يستخدم المؤرِّخ عقله ومنطقه حين يحلل مثل هذه الروايات. وانتهى منها أن التهمة التي أُلصقت بالعبّاسة كانت دسيسة موضوعة، وقد لُفقَتْ لأهداف سياسية، وأغراضٍ شخصية.

الاهتمام بتاريخ القدس خاصّة

نالت مدينة القدس عناية عارف العارف البالغة، لا لأنه مقدسيٌّ فحسب، بل عدَّها ـ مع عروبتها وقدسيتها المميزة ـ المحور الأساس لقضية وطنه فلسطين. وهو الذي يعي، حقَّ الوعي، أطماع الصهيونية فيها، ومحاباة الإنكليز لهم في هذا السبيل. وكان من فرْط عنايته بقدسيتها أن ألف كتابًا في «تاريخ الحرم القدسي»[١٠]. وثنّى بكتاب بعنوان «المسيحية في القدس»[١١]. وظلت المدينة همه الأول، فأصدر كتابًا بعنوان «تاريخ القدس»[١٢]. وفي مقدمته بيّن أنه

(*) من المؤكد أن عارف العارف كان واسع الاطلاع والمعرفة، وأنه رجع إلى تاريخ ابن خلدون، فقد ذكره من مصادر كتابه «تاريخ القدس ـ الموجز»، ص ٣٠٧.

«الموجز في تاريخ القدس». ذلك لأن تاريخها المفصّل يعمل على تأليفه منذ عشر سنين. ويرجو أن يخرجه للناس في أربعة مجلدات(*).

وأصدر كتابًا خامسًا في نكبة فلسطين، دعاه «النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود» في سبعة أجزاء(**). وواضح أنه خصَّ في العنوان مع نكبة فلسطين، الحديث عن نكبة القدس خاصّة؛ لأنها ـ كما قلنا ـ المحور الأساس للقضية بأسرها.

وكان عارف العارف قبل وفاته ببضع سنين (عام ١٩٦٥) يضع الجزء الثامن لهذه الموسوعة، بعنوان «طريق العودة». وختم في سنة وفاته (١٩٧٣) بكتاب: «مآخذي على الحكم الإسرائيلي في القدس»(***).

وهكذا نلحظ أنه لم يتوقف عن التأليف نحو مدينة القدس خاصة، وفلسطين عامة، إلى أن فارق الحياة بجسده. كان دائب الإنتاج، غزير المعرفة نحو هذه القضية، التي كان يعرضها من باب التوعية القومية، وتثبيتًا لعروبة القدس، وسائر البلدان الفلسطينية الأخرى.

ونلحظ، أيضًا، أن كتبه حول القدس وفلسطين كان يحرص على إصدارها مترجمة إلى لغات أوروبية مختلفة، ليعرف الأوروبيون قاطبةً مدى فداحة ما تفعل الصهيونية ببلاده وأهلها.

إن هذه الجهود لم تَضِعْ، وبقيت ماثلة في وجدان الفلسطينيين خاصّة، وقدّرها قومه حق قدرها، فمُنحت روحه وذكراه الخالدة «وسام القدس للثقافة والفنون»، عام ١٩٩٠.

تاريخ القدس ـ الموجز

ذكرنا أنه وضع هذا الكتاب ونشره عام ١٩٥١. وفي مقدمته بيّن أنه «الموجز في تاريخ القدس». وفي آخر الكتاب عدَّه بمثابة الجزء الأول من تاريخ القدس؛ لأنه بدأ فيه من اليوم الذي بناها اليبوسيون (٣٠٠٠ ق. م)، إلى أواخر عهد الانتداب البريطاني (١٩٤٧).

أمّا الجزء الثاني فهو كتاب النكبة، الذي أتينا على ذكره عمّا قليل. وهي النكبة الحواشي التي ألـمَّت بكلٍّ من المدينة والبلاد، مبتدئًا من اليوم الذي صدر فيه قرار التقسيم (٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧) إلى اليوم الذي يصدر فيه ذلك الجزء.

وحين ننظر في هذا الكتاب، وهو شامل لتاريخ المدينة، نجده قد عرضَ أبوابه، وذكرَ الحوادث التي قامت فيها على مرّ العصور، بأسلوب تاريخي مجمل وموجز.

يقول في شمولية كتابه، وفي تمحيصه وتدقيقه: إنه لم يترك بابًا إلاّ طرقه، ولا معبدًا إلاّ ولجه، ولا كلمة منقوشة على الأسوار، أو الجدران إلاّ أنعم النظر فيها، ولا كتابًا أو مخطوطًا، صُنِّفَ في تاريخ هذه المدينة، وسمع به إلاّ رجع إليه ينهل من معينه، ولا طللًا من طلولها البالية إلاّ وقف عليه يستنطقه الخبر.

(*) صدر بعنوان: **المفصّل في تاريخ القدس**، القدس، ١٩٦٢.

(**) عام ١٩٥٦ - ١٩٦٢.

(***) ط ، بيروت، مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية.

وقال إنه جمع مادة الكتاب بروح موضوعية، بعيدًا عن الأهواء السياسية، أو المعتقدات المذهبية. واعتصم في كتابه بالحيدة. وذكر جميع الأمم التي استوطنت المدينة، وما فعلته فيها من خير وشر. وعُنيَ عناية خاصة بالإشارة إلى ما تركته هذه الأمم من طابع فيها، نافع أو ضارّ، دون أن يعبأ بإرضاء فريق، أو إغضاب آخر.

ومن أجل هذه الموضوعية و الحيدة كان يشير في الحواشي إلى المصادر التي استقى الأخبار منها، سواء كان حادثًا أو قولًا من الأقوال.

وفي الباب الأول أتى على ذكر القدس اليبوسية، وزمن الفراعنة، وبني إسرائيل، والآشوريين، والبابليين، والفرس، واليونان، والرومان، والبيزنطيين.

وخلصَ، بوضوح، إلى أن اليبوسيين هم بناة القدس، وفي عهدهم دُعيَت «يبوس». وهؤلاء عرب نبتوا في الجزيرة العربية، ونزحوا مع القبائل الكنعانية، وإن توطّنوا في هذه الديار، وكان ذلك منذ نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. وكانوا أصحاب حضارة، وملكهم (ملكي صادق) هو الذي اختطها وبناها، وكان مسالمًا فعُرفَ بلقب (ملك السلام). ومن ثم عرفت المدينة باسم سالم، أو شالم. وزاد ملكهم اليبوسي في بنيانها، وشيّد برجًا على هضبتها الجنوبية للدفاع عنها، وعُرفت بعد ذلك باسمها الكنعاني (أور ـ سالم)، أي مدينة السلام، ونمت المدينة، لموقعها التجاري المتميِّز، يسندها جيشها وتحصينها. وتحلّق أناسها حول صنمهم الذكر (بعل)، ومعناه الرب.

وعند ضعف اليبوسيون، دَعَوا تحوتمس الثالث بمصر (١٤٧٩ ق. م) إلى أن يدخل البلاد ويدفعوا له الجزية، لقاء حمايتهم من غزو العبرانيين الذي عُرف عنهم أنهم كلما احتلوا مدينة أعملوا السيف والنار فيها، وفي سكانها. وبقيت القدس ومنطقتها تحت السيطرة الفرعونية دهرًا كان لهم فيها جيش يحمي طريق التجارة إلى مصر. ولم يحاول المصريون القدماء تمصيرها، بل اكتفوا بتحصيل الجزية من سكانها، بإزاء حماية طريق التجارة.

وخرج بنو إسرائيل من مصر، يقصدونها، ولم يفلحوا في الوصول إليها من الجنوب، فالتفوا إليها عن طريق جبال مؤاب بشرقي الأردن، فاحتلوا أريحا، ودكّوها دكًّا، وقتلوا من وُجد فيها من رجال، ونساء، وشيوخ، وأطفال(*). وكذلك بقية المدن والقرى في الطريق إلى «يبوس» التي استعصت عليهم، لشدّة مقاومة اليبوسيين لهم، وتحصين المدينة أمامهم.

وبعد حين دخلوها بقيادة يهوذا الذي احتلها وأشعل النار فيها، وقتل عشرة آلاف رجل من سكانها. ولكنه لم يلبث حتى خرج منها تحت ضغط اليبوسيين. وفي عهد داود (١٠٤٩ ق.م)، ملك بني إسرائيل، زحف من «حبرون» بجيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل، ولقوا أول الأمر مقاومة اليبوسيين العنيفة. ثم حاول مرة أخرى فسيطر عليها، بعد أن سيطر على عين الماء التي تستقي المدينة منها.

لم يؤثر بنو إسرائيل باليبوسيين ومنطقتهم، لسبب بسيط، وهو أنهم كانوا أصحاب حضارة، وبنو إسرائيل يعيشون في خيام. فكان أن تأثر بنو إسرائيل بحضارتهم، وسكنوا بيوتًا بنوها كبيوت الكنعانيين، وخلعوا الجلود التي كانوا يلبسونها، ولبسوا الصوف كثياب الكنعانيين. وجعل داود المدينة عاصمة ملكه، وترك اسمها الكنعاني (أورو ـ

(*) سِفر يشوع، الإصحاح ٦، عدد ٢١ - ٢٥.

سالم)، وأسماها مدينة داود. وأراد أن يحسِّن صورته أمام شعبه الذي سخط عليه، فاشترى من (إرنان اليبوسي) أرضًا كانت تستخدم بيدرًا للحبوب، وشرع في بناء الهيكل، ولـمّـا توفي قبل أن يتمَّه تولى سليمان الملك بعده، وأتمَّ الهيكل (١٠٠٧ ق. م). وفي عهده نمت المدينة وازدهرت، وصاهرَ فرعونَ مصر ليأمن شرَّه. وبعد موته اقتتل ابناه، غير الشقيقين، فانقسمت المملكة إلى شطرين: (يهوذا) وعاصمتها أورشليم، و(إسرائيل) وعاصمتها شِيكِيم (وهي نابلس). وفرض كل منهما على شعبيهما الضرائب الباهظة ليتغلّب على خصمه. ومُنعَ شعب شطر (شيكيم) من زيارة أورشليم.

وظلت أورشليم، بعد ذلك، أربعة قرون يحكمها اليهود، قضوها في حروب مع مصر وشطر (شيكيم). وفي ثورات، ومؤامرات، وشغب، وقتال.

وفي عهدهم غزا البابليون أورشليم، فافتتحها نبوخذ نصَّر، ودك سورها، ودمَّر هيكل سليمان، وقَتل منهم من قتل، وسبى جميع الأحياء، وأرسلهم إلى بابل، بمن فيهم ملِكهم. وانقرضت مملكة يهوذا عام ٥٨٦ ق. م.

ولـمَّـا جاء الفرس سمح كورش، ملكهم وقد تزوج بيهودية، بأن يعود من يرغب من اليهود إلى أورشليم. وعاش من عاد إليها كطائفة دينية، يرأسها كاهن، دون أن يكون لهم كيان سياسي البتَّة.

وبمجيء بومبي ـ إمبراطور الرومان ـ احتلَّ المنطقة بأسرها، وقضى على حرية الشعب اليهودي قضاء تامًّا، ومن ثمَّ عاش اليهود بعد ذلك في ظلِّ الشعوب والأمم الأخرى.

و ظلَّت العلاقة متوترة بين الرومان واليهود. ففي عهد الوالي الروماني بيلاتوس (٢٦ - ٣٦ م) صُلِبَ من يعتقدون أنه السيد المسيح. ووَصَفَ هذا الوالي اليهودَ بقوله: إنهم يضحّون بكل غال ورخيص في سبيل مصلحتهم. ووَصَفَ يورو سالم ـ بسبب أفاعيل اليهود ـ بأنها «عش الدسائس والفِتَن».

وكان الرومان تارة يُنزلون باليهود أشد العقاب، وطورًا يجنحون إلى الرأفة. ولـمَّـا ساد الشرُّ من فئة اليهود، وعمَّ الفسق، وفُقِدَ الأمن، تقرر أن يقضي الرومان عليهم قضاء مبرَمًا، فحاصرَ تيطس المدينة (٧٠ م) بجيش لجب، فيه فرقة من العرب، وقَتَل من سكانها خلْقًا كثيرًا، وحَرَق الجندُ الهيكلَ، ودُكَّت الأسوار، وهُدِمَت المنازل، وامتلأت الشوارع بجثث القتلى. وأصاب اليهود على يد تيطس ما أصابهم من ذُلٍّ وهَوَان. وحُرِّمَ على اليهود الرجوع للمدينة، وبقي فيها المسيحيون، وحاميتها الرومانية.

ولمَّا استمرَّ الشَّغَب من اليهود، وتولى أدريانوس عرش الرومان (١١٧- ١٣٨ م) اعتزم أن يَقضيَ على اليهود، فقتل من اليهود عددًا كبيرًا، ومن لم يُقتل طُرد من المدينة، وتشتّت اليهود، بعدئذٍ، تحت كلِّ كوكب. ولكي ينسى اليهود يورو سالم أمر أدريانوس بتدميرها.

ثم أُتبعت المنطقة لبيزنطة، وتولّى قسطنطين العرش وتنصَّر. وزارت أُمه الملكة هيلانة إيليا (بديل يورو سالم التي دُمِّرَت) وبنت فيها كنيسة القيامة (٣٣٥ م)، وخرَّبَت البناءَ من بقايا الهيكل، وجعلته مكانًا لقمامات البلد، استهانة باليهود. وعَقد المؤلِّف الباب الثاني للفتح الإسلامي. وذكر من الأحداث ما نعرف في مصادر التاريخ ومراجعه. ودخـل العرب إيلياء (القدس) سِلْمًا، وأعطى عمر بن الخطاب لأهلها أمانًا مكتوبًا، عُرِفَ بالعهدة العُمَرية، أُرِخَّ

سنة ١٥ للهجرة. ويلفت النظر إلى ما ورد فيه: «ولا يسكن بإيلياء معهم (أهلها من النصارى) أحدٌ من اليهود». وهذا شرط اشترطه أهل إيلياء.

وفي عهد الخليفة الأُموي عمر بن عبد العزيز (٧١٧ م) أمر بإخراج اليهود من بيت المقدس، لـمَّـا أحس بنيَّتهم نحو المدينة.

ولـمَّـا حكم كافور الإخشيدي ذكرت المصادر أن اليهودَ في عهده عاثَوا فسادًا، وخرَّبوا وهدموا بعض الأماكن فيها.

وفي عهد الملك المنصور سيف الدين قلاوون (٢٨٠م)، وهو من المماليك، أصدر مرسومًا قضى بألاّ يُستخدم في الدولة أحد من أهل الذِّمَّة ـ اليهود والنصارى ـ فصُرفوا عنها عام ١٢٨٥ م.

ولـمَّـا تولى الحكم سلطانُ المماليك قايتباي (ت ١٤٩٥ م) قام خلاف شديد بين المسلمين واليهود حول دار واقعة في حارة اليهود، بين كنيس اليهود ومسجد المسلمين. وكان حكم قضاة المدينة ومشايخهم في صالح اليهود. ولـمَّـا رفع المسلمون أمرَهم إلى السلطان بمصر نقض حكمَ القضاة، ثم عاد فانصاع لإلحاح اليهود، وأصدر أمرَه في صالحهم. وشاعت حينئذٍ في القدس شائعات تقول إن اليهود ما كانوا لينجحوا لولا ما بذلوه من أموال وفيرة للخزائن السلطانية، وثار المسلمون، وهدموا الكنيس، فغضب السلطان غضبًا شديدًا، وأمرَ بإحضار زعماء المدينة إليه، وأُرسِلوا مصَفّدين بالأغلال، وهناك ضُرِبوا، وسُجِنوا، ولم يُطلَق سراحهم إلاّ بعد أن هدأت الفتنة.

وهكذا، في حَيْدة واضحة، يعقد المؤلِّف بابًا في الفتح العثماني، وإبراهيم باشا في القدس، وبابًا آخر للاحتلال البريطاني، إلى أن أتى إلى «وعد بلفور» الذي منحه الإنكليز، يمثّلهم وزير خارجيتهم اللورد بلفور إلى اليهود، بوساطة زعيمهم روتشيلد، بتاريخ ٢ تشرين الثاني نوفمبر عام ١٩١٧م. وبقي هذا الوعد سرًّا لم يُذعْ إلاّ بعد أن احتلّ الإنكليز القدس في ٩ كانون الأول من العام نفسه، ووضعَت الحربُ أوزارَها، و لم يعُد الإنكليز في حاجة لرضا العرب أهل البلاد.

ويتلو المؤلِّف الأحداث حدثًا حدثًا، إلى أن عَيَّنَت إنكلترا السير هربرت صمويل مندوبًا ساميًا على فلسطين. ونزل القدس بحراسة الدبَّابات، خشية أن يغتاله العرب، فهو يهودي إنكليزي، ومن أقطاب الحركة الصهيونية.

وفصَّل عارف العارف فيما وقع من حركات ثورية من قِبَل العرب ضد الصهيونية والإنجليز. وبقي الإنجليز يمكّنون اليهود من فلسطين، بشتّى الوسائل إلى أن انتهى الأمر بتسليم البلاد إلى الصهيونية، وأعلن قيام دولة إسرائيل ظلمًا وعدوانًا.

وبعد هذه الأبواب المعالجة للأحداث السياسية، يعقد المؤلِّف أبوابًا في أخبار القدس، في مختلف العصور: أسمائها، وأسوارِها، ومياهِها، وما تعرّضت له من زلازل.

ويلفت النظر استعراضُه أسماء القدس، منذ نشأتها الكنعانية إلى منتصف القرن العشرين. وقد تنوّعت مصادره من إنجليزية إلى مصادر من التراث العربي، كمعجم البلدان، لياقوت الحموي، وتاريخ ابن عساكر، وكتب أُلِّفت في فضائل هذه المدينة. وفي حالات أخرى يردّ على أقوال مجتهدين معاصرين. وكان يصوِّر، في هذا كله، عن اتساع معارفه، وكونه يملك روحَ مؤرِّخٍ متمكِّنٍ حقًّا.

وعقد في الباب السابع مادة نفيسة بعنوان: القدس كما رأيتها في أواخر عهد الانتداب البريطاني، عام ١٩٤٧م. وقد حوى الباب مادة وفيرة وقيّمة عن القدس، أهميتها التاريخية، وموقعها الجغرافي، وهو استقصاء وافٍ، وسجل لأمور القدس المتنوعة في ذلك الحين، خاصة أن إسرائيل في العقود الأخيرة أخذت بخطًى حثيثة نحو تهويد المدينة في مناحيها كافة.

أمَّا بابه الأخير فيختمه بذكر الأماكن المقدّسة، ودور العبادة من يهودية ومسيحية وإسلامية. وفيه تجلّى المؤلِّف بمعلومات مكثفة وشاملة. وبهذا جاء الكتاب بمثابة سجل أمين لتاريخ القدس، من أقدم العصور، إلى ما كانت عليه عام ١٩٤٨م، وهو انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين.

الخاتمة

مهَّدتُ للبحث بتوطئة تكشف عن معرفتي بعارف العارف، ولقائي به في القدس، في صيف عام ١٩٥٤م، وخرجتُ بانطباع أنه شخصية مقدسية فذَّة، أعظم من كتبه مهما عظمت، يفتِّح لمستمِعِهِ أبوابَ الأمل على مصاريعها، بالإصرار والعزيمة، مهما اشتدَّ الضيق، وأطبق الظلام.

واستعرضتُ هيكل حياته وثقافته. فوجدناه بادي الحركة والنشاط على الأصعدة السياسية، والفكرية، والثقافية، طوال الثمانين حولًا التي عاشها. ووضعتُ يدي من خلال إعدادي للبحث على مِفتاح شخصيته، المتمثِّل في التصميم والتحدّي. وقد تسلَّح بتجارب مختلفة، ومعارف واسعة، وأتقنَ غير لغة من لغات الشرق والغرب.

وبيَّنتُ ولعه ببحوثه التاريخية في غالب مؤلفاته. وكشفتُ منها عن منهجه في كتابة التاريخ. وأعانني في ذلك أنه في مقدمات كتبه كان يذكر بوضوح طريقته في التأليف التاريخي، ومنهجه الذي وضع له الضوابط، وألزَمَ نفسه بها. و كان يتوخّى في مؤلفاته التاريخية الموضوعية والحيْدة، والنزاهة، معتمدًا على أوثق المصادر، وأصدق المراجع، يعينه في ذلك، على نحو ما ذكرنا، من إتقانه غير لغة أجنبية. وربطتُ بين هذا المنهج، وما كان قد دعا إليه ابن خَلْدون في تاريخه الشهير ومقدمته ذائعة الصيت، والتي نالت عند العلماء قاطبة أعلى المراتب.

وتوجَّه المؤلِّف في كتبه التاريخية إلى تاريخ كثير من المدن الفلسطينية بعامَّة، والقدس بخاصَّة؛ لأنها العمود الأساس الذي ترتكز عليه بلادنا، ولكي يبقى تاريخ هذه المدن ماثلًا في أذهان الفلسطينيين والعرب، وكذلك ذكراها.

كثَّفتُ الحديث حول كتابه «الموجز في تاريخ القدس»، وكيف أنشأها اليبوسيون، وهم عرب أصحاب حضارة. وكيف احتلها العبريون الذين عُرفوا في التاريخ بالإيغال في التقتيل، وسفك الدماء، والتحريق والتخريب، وإثارة الفتنة والفوضى. وكيف أثاروا حفيظة كثير من الحكّام آنذاك، فنبوخذ نصَّر البابلي فتك بهم في القدس، ومن نجا منهم ساقه أسيرًا إلى العراق. وفعل الرومان بهم الأفاعيل، من كثرة ما نشروا في القدس من فِتَن، وأشاعوا من مظاهر التخريب.

ونذكر أن الوالي الروماني بيلاتوس، الذي صُلب من يعتقدون السيد المسيح في عهده، وصف اليهود بقوله: إنهم يضحّون بكلِّ غالٍ ورخيص في سبيل مصلحتهم. ووَصف يورو سالم بسبب أفعال اليهود فيها بأنها عُشُّ الدسائس والفِتَن.

ولم ينسَ المؤلِّف، بعد أن ذكر الأحداث السياسية، أن يرصد أخبار القدس، في مختلف العصور. وفي آخر المطاف عقد بابًا في القدس كما رآها، وعرفها في منتصف القرن العشرين. وقد حوى الباب مادة وفيرة عن ظروف القدس وأحوالها المختلفة، الأمر الذي يدعو إلى العودة إلى الباب وقراءَته بدقة وتمحيص، بإزاء ما طرأ عليها من تهويد أحيائها في الداخل، وكذلك محيطها الواسع في الخارج.

حقاً، لقد صدق مَن عَدَّ التاريخ معملًا للتجربة الإنسانية وأطماعها. لقد اتَّضح صدق هذه المقولة في ثنايا أحداث مدينة القدس، وتضاعيف قضية فلسطين، كما أتى على ذكرها عارف العارف، في حَيْدة تامَّة، وموضوعية مدْهِشة.

* * *

هوامش ومراجع الفصل الثاني:

(١) **القدس**، مطبعة بيت المقدس، ١٩٤٣. وتُرجم إلى الإنكليزية والألمانية، وفصول منه إلى العبرية.

(٢) **القدس**، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، ١٩٤٣. وتُرجم إلى الألمانية والعبرية والإنكليزية.

(٣) **القدس**، مطبعة بيت المقدس، ١٩٤٣. وتُرجم إلى الألمانية والعبرية والإنكليزية.

(٤) **القدس**، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧ م. وتُرجم إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية.

(٥) **تاريخ القدس**، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٥١. وتُرجم إلى الإنكليزية «المطبعة التجارية بالقدس، ١٩٥١»، والفرنسية.

(٦) **القدس**، ١٩٥٥. ولعله طبعة جديدة من: تاريخ الحرم القدسي.

(٧) ط، ١٩٣٣.

(٨) عارف العارف، النكبة: **نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود**، سبعة أجزا ، منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، ١٩٥٦ - ١٩٦٢.

(٩) **المصدر نفسه**، ص ٣ - ٦.

(١٠) عارف العارف، **تاريخ الحرم القدسي**، القدس، مطبعة دار الأيتام الإسلامية، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م.

(١١) عارف العارف، **المسيحية في القدس**، القدس، مطبعة دير الروم الأرثوذكس، ١٩٥١. وترجم إلى الإنكليزية والفرنسية.

(١٢) عارف العارف، **تاريخ القدس**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١.

(١٣) عارف العارف، **تاريخ بئر السبع وقبائلها**، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٩٣٤م.

(١٤) د. تيسير الناشف، **مفكِّرون فلسطينيون في القرن العشرين**، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨١م.، ترجمة عارف العارف، ص ٣٠ - ٤٩.

(١٥) محمد عمر حمادة، **موسوعة أعلام فلسطين**، دار الوثائق، دمشق، ط ١، ٢٠٠٧م، ترجمة عارف محمد العارف، الجزء الخامس (ع - غ)، ص ٢٢ - ٢٥.